القسم الثالث

فلسطين ايالة عثمانية

الفصل الثالث عشر

٦٩ - تمهيد

إن دولة حكمت فلسطين وخفقت راياتها عَلَى ربوعها أربعة قرون لجديرة بأن نخصص لها بابًا ندوّن فيه أعظم المواقع وأشهر الحوادث التى جرت فى أيامها ولا بأس من أن نبدأ بحثنا بذكر خلاصة عن أصل هذه الدولة وما وقف إليها من الأعمال الجليلة دون سواها من الدول الأخرى.

(أ) حاول العرب فتح القسطنطينية ودك عرش الرومان والقضاء عَلَى مملكتهم فسلخوا جزءًا كبيرًا من جسم إمبراطوريتهم ولم ينفذوا إلى قلبها فبقيت ذات حول وقوة تكافحهم وتنازعهم البلاد ثم طمع سلجوقيو الأناضول فى القسطنطينية وتلاهم التتر فهاجموا الرومان من الشمال والشرق والجنوب وفتكوا بهم فتكا ذريعًا فلم يقدروا عليهم فلما نجم الأتراك العثمانيون فتحوا الأناضول وتوغلوا فى أوروبا وحاصروا الآستانة من كل الجهات وبعد حروب طويلة دامية دخلوها عنوة سنة ٨٥٧هـ وسنة ١٤٥٣م واستولوا عَلَى ممالك الرومان فى أوروبا وآسيا.

(ب) أصلهم: كان وسط آسيا مهد القبائل التركية ومصدرًا للأمم التى كانت تبدو صغيرة ثم تنتشر فنزداد عظمتها كلما نأت عن بلدها الأصلى كحجر يلقى فى بركة ماء فتتسع دائرته كلما بعدت عن مركزها أو كصخر انحط من على فكلما طال فى جريهِ زادت سرعته واشتد انحداره. أما الأتراك العثمانيون فهم من جبل التتر (القبيلة الطورانية) الذين سكنوا حدود الصين ثم زحفوا إلى تركستان

فتجنيهم الأكاسرة وهابوا صولتهم فلما فتح العرب إقليمهم احتك الأتراك بهم واقتبسوا مدنيتهم ودانوا بالدين الإسلامى فى القرن الحادى عشر وأشهر هذه القبائل السلاجقة الذين ينتسبون إلى جدهم سلجوق والعثمانيون الذين ينتسبون إلى السلطان عثمان الغازى وهو الحجر الأول فى أساس دولتهم.

(جـ) تكوّنهم: فى سنة ٦٨٧ وسنة ١٢٨٨ بدأت نواة الدولة العثمانية تتشكل فى الأناضول عَلَى أصل الدولة السلجوقية وما زال يمتد جذرهم ويبسق فرعهم حتى تغلبوا عَلَى إخوانهم واحتازوا الملك دونهم ومدوا ظلهم إلى البلقان وفينا عاصمة النمسا وامتلكوا العراق وسورية ومصر وإيران وشمال البحر الأبيض ولم يقفوا عند هذا الحد كأسلافهم السلاجقة أو الدول الإسلامية الأخرى بل تعدوا طورهم وضنوا عَلَى العرب بالخلافة (السلطة الروحية) وتطلعوا إلى اغتصابها منهم. فإن العرب قبلوهم همجًا وهذبوهم وصقلوهم وربوهم وعلموهم الدين الإسلامى الحنيف وعرفوهم عبادة الله عوضًا عن عبادة الأصنام ولقنوهم اصطلاحات علمية وفنية فلم يرع الأجانب لهم هذا الجميل وغلبوهم عَلَى تلك المملكة الواسعة التى فتحوها بجدهم ونشاطهم وروحهم الدينية وسلبوهم إياها وهذا يشبهُ ما حدث للرومان مع برابرة الألمان الذين ظهروا من أحراج أوروبا الشمالية فسطوا عَلَى مدينتهم وانتزعوها من أيديهم.

فاز الترك على العرب بيد أنهم سلكوا شريعة نبيهم محمد ﷺ ودخلوا فى دينهم واقتبسوا تقاليدهم فأصبح الأتراك وهم الغالبون مغلوبين لارتباطهم باللغة العربية الدينية وزيارة البلاد العربية لأداء فريضة الحج فهذه العلائق المتينة ربطت الأتراك بالعرب وأخضعتهم إليهم إلى أن قام الحزب الوطنى فى أنقرة وقرر أن تتلى خطب الجمعة فى البلاد التركية بلغتهم فدفنوا بهذا الحكم لغة محمد ﷺ.

٧٠-نشوء الدولة العثمانية حتى فتحها فلسطين

مؤسس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شاه التركمانى سلطان بلاد ماهان قرب بلخ من جنكيز خان وارتحل إلى بلاد الروم ببعض قبائل الترك فلما انتهى إلى

الأناضول رأى جيشين يلتطمان ويتحاربان فعلا نشزًا من الأرض ليراقب حركاتهما الحربية ولما آنس من أحد الفريقين ضعفًا وخذلانًا هب بفرسانه لنصرته واعمل السيف فى الجيش المنتصر فهزمه وبدّد جيشه وبعد أن انكشف الغبار علم أن من أنجده كان الأمير علاء الدين سلطان قوفية[1] الذى شكره عَلَى نجدته وصنيعه وأقطعه عدة مدن واتخذه ركنه وعماده فى حروبه وغاراته وأغدق عليه النعم ومنح قبيلته لقب(مقدمة السلطان)ولما توفى ارطغرل خلفهُ ولده عثمان وأخذ لقب بل مثل، أمير، لورد، فيكونت،وأجيز له ضرب النقود وأن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة فعرج إلى قمة الرقى تدريجًا حتى قدم التتر وقتلوا الملك غياث بن السلجوقى فاتسع المجال لعثمان ولقب نفسه(بادشاه آل عثمان)واتخذ مدينة يكيشهر عاصمة له وخلفهُ ابنهُ اورخان فاستولى عَلَى جزء من أوروبا ونظم الجندية بمشورة وزيره خير الدين باشا الذى جمع الشباب من أسرى الحرب فرباهم تربية أنستهم أصلهم وجنسيتهم وباركهم شيخ طريقة البكطاشية المقيم فى أماسية وسماهم(يكى جارى) الجيش الجديد فتحرف الاسم إلى انكشارى فكان هذا العمل من أكبر العوامل لتثبيت دعائم هذه الدولة الفتية وقد سلك هذه الخطة فردريك الكبير ملك الألمان إذ نظم الجيش فرفع شأن بروسيا وأرهب ممالك أوروبا.

ارتقى جيش العثمانيين الجديد (يكى جارى) وزاد عدده فاخترق قلب البلقان ومكدونيا وفتح الآستانة.

وفى عهد السلطان سليم تحالف ملك مصر قانصوه الغورى وشاه إيران إسماعيل واتفقا على محاربة العثمانيين فسار السلطان سليم بجيش إلى بلاد العجم وفتح بعض ولاياتها وأقاليمها ثم انثنى إلى محاربة الملك الغورى فتصادف الجيشان فى مرج جابق (قرب حلب) ولم يصبر المصريون على مدافع الأتراك وانهزموا فقتل ملكهم وأسر الخليفة واستولى السلطان سليم عَلَى مدن سورية ثم تقدم إلى فلسطين فالتقى بجيش طومان باى قرب اللجون فحمل عليهم بجيشه وردهم عَلَى أعقابهم واستولى عَلَى فلسطين وفتح مصر فقضى عَلَى آخر ملوكها

(١) إحدى الإمارات السلجوقية المتجزئة من مملكتهم بعد انحلالها.

وضمها إلى ملكه فى سنة ٩٢٣هـ وسنة ١٥١٧م وقسم مصر إلى أقسام إدارية ووزع النفوذ بين الأمراء فكان كل منهم رقيبًا عَلَى الآخر وقفل راجعًا إلى الآستانة مستصحبًا محمد المتوكل آخر خلفاء بنى العباس الذى تنازل للسلطان سليم عن الخلافة وسلمهُ الآثار النبوية الشريفة: البيرق والسيف والبردة وأعطاه أيضًا مفاتيح الحرمين الشريفين فصارت الآستانة من ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية وأصبح كل سلطان عثمانى خليفة لرسول الله ﷺ وأميرًا للمؤمنين فجمع السلطان سليم السلطتين الزمنية والروحية وحصرهما فى نفسهِ وفى أحفاده من بعده ولم يك عمله هذا حرصًا عَلَى الدين أو حماية للإسلام وحسب ولكن أراد أن يستأصل منازعيه ويوحد كلمة المسلمين ويجعل لهم إمبراطورية عظمى.

٧١ - السلطان سليمان وما بعده من الأحداث

لو تتبعنا تاريخ هذا الخليفة لوجدناه مملوءًا بالأعمال الجسيمة والمآثر الجليلة الخالدة ولكنا نقتصر عَلَى ذكر ما يتعلق بفلسطين فمن مآثره فيها: وأعماله الحميدة سور القدس الذى أنشأه سنة ١٥٤٢م وسنة ٩٤٥هـ ولا يزال اسمه منقوشًا عَلَى صفحاته. ومنها عمل باب قبة الصخرة الغربى. وفتح باب السيدة مريم. وسد الباب الذهبى (شرقى الحرم). ومنها عمارة بركة السلطان الواقعة على طريق المحطة من باب الخليل. وهو الذى نظم القوانين، فلقب بالقانونى وكان سلطانًا عظيمًا وإداريًا حازمًا وبطلاً قديرًا وصلت تركيا فى أيامه إلى ذرا مجدها حتى إنهُ هدد المجر واوستريا وملك سائر بلاد البلقان وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية تحيط به الأقاليم العثمانية من كل جهاته ودخل قى طاعته خير الدين باشا بارباروس فولاه قيادة الأسطول وأوقع الرعب فى دول أوروبا البحرية. وفى عهده خرج حاكم سورية وفلسطين جان بردى الغزالى فاستولى عَلَى قلعة دمشق وأعلن العصيان فأرسل إليه السلطان أحد قواده فرحات باشا وعاجله فأخمد تلك الفتنة وقطع رأس الغزالى.

وفى أواخر القرن السادس عشر فشا استعمال التبغ فى سورية ومصر وأقبل الجميع عَلَى تدخينه. وفى ذلك القرن استولى الأمراء المعنية عَلَى نابلس وأطرافها

وعينوا عليها ولاة من قبلهم وسار الأمير فخر الدين إلى نهر العوجاء وحارب بدو الساحل وبدد جموعهم ولكن أهل بلاد حارثة[1] حاصروه فى قلعة جنين وأخرجوه منها.

وفى هذا القرن عظم شأن الانكشارية واستبدوا بالملوك فأخذوا يخلعون من شاءوا ويولون من أرادوا وفى سنة ١٧٦٤م عصى أمراء جبل نابلس الحكومة فاستنجد والى الشام عثمان باشا الكرجى بالأمير يوسف الشهابى فأمدَّه بجيش كثيف من أهالى لبنان وحاصروا عاصمتهم (قلعة صانور) فلم يستطيعوا فتحها فقال شاعر جرار:

عرب ودروز أجونا صايلينا　　من العرقوب أجونا صايلينا

وقال شاعر اللبنانيين:

جينا بلاد جـــدى ما وصلها　　عرب ودورز والدولـــة تصلها

عربســـتان يا رب نصلهـــا　　بحق البيت أو ما زاره صحابة

٧٢ - خروج الأمير على المصرى والشيخ ظاهر العمر

فى أثناء الحرب الروسية العثمانية أرسلت روسيا أسطولاً إلى البحر المتوسط وأثارت الشيخ ظاهر العمر وعلى بك المصرى الملقب بشيخ البلد فخرجا عَلَى الدولة وحشد على بك الجنود وأرسلها مع محمد بك المكنى (بأبى الذهب) إلى الحجاز فاحتل جدة وطرد الشريف من مكة ودعى له عَلَى المنابر وضرب السكة باسمه. أما الشيخ ظاهر العمر فإن أصله من الحجاز جاء أجداده الزيادنة فى الفتح الإسلامى الصلاحى وكانت اقطاعاتهم خمس قرى وهى: بيت اكشا والنبى صموئيل والجيب وبين نابالا وبيت جنينا فسكنوا فى القرية الأولى ثم رحل جده زيدان ونزل فى شفا عمرو فأكرمهُ محافظ القلعة وظل يتقدم إلى أن تعين ولده عمر على عكا ثم خلفه ابنهُ ظاهر المشهور فاتفق مع المتاولة حكام صور وبلاد بشارة

(١) ناحية مؤلفة من ٣٥ قرية تابعة إلى جنين.

وخالف الدولة فسير إليه والى دمشق جندًا فاستصرخ زميله على بك المصرى وزيـن له الخروج عَلَى سورية والاستيلاء عليها فجهز إليه عشرة آلاف مقاتل مع القائد إسماعيل بك وأمره بطاعة الظاهر فساروا إلى فلسطين وقابلهم أبناء الظاهر فى يافـا باحتفاء وأتوا بهم إلى عكا فحاول ظاهر العمر أن يوجههم إلى طريق الحج ليوقعـوا بوالى دمشق فأبوا وعاد بهم قائدهم إلى يافا فاشخص على بك المصرى عسكرًا آخـر بقيادة أبى الذهب وانضم إليه عسكر ظاهر فكانوا ستين ألف مقـاتل وحـاربوا والى الشام فلم يثبت أمامهم وولى هاربًا فاستولى أبو الذهب عَلَى دمشق واعتزم عَلَـى أن يمتلك بقية البلاد غير أن القائد الأول إسماعيل حول عزمه وأفسد إخلاصه فرجع إلى مصر مواليًا للدولة مغاضبًا على بك ومزاحمه فغلبه عَلَى أمره وألجأه أن يفر إلى ظاهر العمر فى عكا ومن هناك استنجد الأسطول الروسى فساعدهما من البحـر وامتلكا صور وصيدا وطردا الوالى درويش باشا[1].

ثم اتفقا عَلَى محاربة أبى الذهب ودلفا إلى مصر فقابلـهم قـرب غـزة وحاربـهم فكسرهم وجرح على بك فى وجهه وأخذ أسيرًا فلاطفـهُ أبـو الذهـب ولكنـهُ مـات مـن جرحـه. ولمـا رجـع الظـاهر إلى عكـا مخـذولاً عفـا عنـهُ السـلطان وولاه آيلـة صيدا وعكا فلم يخلـص نيتـهِ فخـرج إليـه أبـو الذهـب مـن مصـر بعسـكر كثيـف وخيم حول غزة وحاصر كريـم بـن ظـاهر العمـر فـى يافـا ٦٠ يومًـا ففتـح المدينـة عنوة ونهب أموالها وقتل من كان فيها وأقبل عَلَى عكا ففر ظاهر منـهُ ملتجئًـا إلى عرب عنزة.

ولما مات أبو الذهب رجع الشيخ ظاهر إلى عكـا واحتلـها فسير إليـه السـلطان العثمانى الأميرال حسن باشا فهدد ظاهرًا بالحرب إن لم يؤد ما عليه من الأمـوال فلم يلتفت إلى طلبه بل رده ردًا قاسيًا فحاصره وضيق عَلَى المدينة وضبطها وأسـره واجتز رأسه وأرسله إلى السلطان ومن آثار ظاهر العمر سور عكا وسراية شفا عمـرو وبعض مساجد وعمارات أخرى.

---

(١) من أجداد آل رضوان فى غزة الذين تحدر منهم أكثر من عشرة باشاوات وصدور عظام.

إن من استقصى حوادث هذا المختصر وجد أن البلاد كانت مضطربة فتارة فـي حالة سلم وهدوء وطـورًا تـهيج فيـها نـار الحـرب والثـورة وتكـثر فيـها الخـوارج وما السبب إلا تنافر الأمة والحكومة فإذا تفاهما ساد السكون وأمن الناس وإن ساء ظن الأمة بحكومتها اختل الأمن وثارت الفتن ونشأ عن ذلك ما لا يحمد عقباه من سفك الدماء وقتل النفوس البريئة.

كانت حكومة سورية في القرن الثامن عشـر حكومـة لا مركزيـة أي القطاعـات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكـم منطقتـه فكـان مشـايخ أبـو غـوش أو البراغثة يحكمون بني مالك وبني حسن وبني زيد وبني مـرة وبنـي سـالم فـإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ «العدلية» ويقبلون حكمه لا محالـة. ومـن خالف عادات البلاد أو أخل بتقاليدهم يسجن في سجنهم وكان الشـيخ أو الأمـير يجبـي الضرائـب ويقـدم المقطـوع عليـهِ للـوالي ويـأخذ الزيـادة وإذا حدثـت فتنـة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من أمراء منطقته فيخرجون بأنفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم. فالشيخ أو الأمير يحكم مقاطعته كما يحكم الأمـير ايالته وكثيرًا ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضـاة الأمـراء والـولاة فادّى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن وسبب للحكومة خسرانًا كبيرًا في الأموال والرجال. وقـد تنبـهت الحكومـة لهـذه الأضـرار الناجمـة فعمـدت إلى إضعاف قوة المشايخ والأمراء وأيدت الجزار في عكا وأشارت إليهِ بإبادة المنتقديـن ونصر ولاتها المخلصين لكنها لم توفـق إلى إنجـاز هـذا العمـل إلا سـنة ١٢٨٧ هـ وسنة ١٨٧٣ م حيث ألغـت الإمـارات ومنـاطق النفـوذ وأدارت البـلاد بموظفيـها. وهذا الأسلوب يشبهُ ما فعله لويس الحادي عشر في فرنسـا فإنـهُ مـازال بـالأمراء والنبلاء حتى قضى على سلطتهم وخلص من نفوذهم الذي كان حاجزًا بينهُ وبـين الشعب.

٧٣ - أحمد باشا الجزار

هو رجل بشناقي الأصـل مـن بـلاد البوسـنة كـانت نفسـه نزوعـة إلى الأعمـال الجليلة وتذليل الصعاب فبعثت بهِ الحكومـة إلى مصـر ليستأصل شـوكة المـاليك

الذين كانوا شجًا فى حلقها فاتبع سياسة إلقاء بذور الفساد والفتن بين المشايخ والأمراء وفاز بأمنيتهِ وكان طائش السيف ظالمًا بطاشًا استحل الموبقات وولغ فى النفوس فسخط عليهِ عامة الشعب والحكام ففر ملتجئًا إلى الأمير يوسف الشهابى ليتبع أمراء سورية بمماليك مصر.

وفى سنة ١٧٧٠ م أنيطت بهِ المحافظة عَلَى مدينة بيروت فحصنها ومنع أهل الجبل من دخولها وأزمع عَلَى العصيان ففطن لذلك الأمير يوسف وباغتهُ وهمّ أن يبطش بهِ فقابله الجزار بالخضوع والطاعة واستمهله ٤٠ يومًا ثم جاهر بالكفران فغلب عَلَى أمره ولم يفلح. وحدثت بينه وبين على بن ظاهر العمر وقعات خذل فيها على وفرَّ من البلاد فقتل وزالت إمارة أهله واستحوذ الجزار عَلَى ما كانوا يملكون من المقاطعات واتخذ عكا عاصمة له وبنى عليها سورًا ثانيًا وجامعًا كبيرًا هو خير حسناته وآثاره.

وما فتئ الجزار يقتل ويذبح ويثير بعض المشايخ عَلَى بعض حتى أصبح من أكبر ولاة وأبطال سورية فزادت ثقة الدولة بهِ واعتمدت عليه فى تنفيذ غاياتها وتكثير وارداتها فازداد بطشه وصنع وتدًا «خازوقًا» كان يُجْلِسُ عليهِ من خالفهُ أو عانده فارهب الناس وأخاف أهالى البلاد لأنهُ كان لا يثبت على حال مع صديق أو عدو فبينا نراه اليوم يحسن إلى رجل ويعطف عليهِ إذا بهِ غدًا قد أصبح فريسة لسيفهِ وهدفًا لسهام انتقامه. فيروى أنهُ ذهب لأداء فريضة الحج فبلغهُ ما جعله يرتاب فى أهل بيتهِ فلما رجع شواهن فى النار ومات الجزار سنة ١٨٠٤م بعد أن بلغ من العمر ٨٤ حجة ودفن فى عكا فى الجامع الذى بناه.

مرّ عَلَى فلسطين قرنان ونصف وهى نائمة لم يحدث فيها شىء سوى ما انتابها من الحوادث الداخلية البسيطة فأغفلها التاريخ وجاءت عرضًا فى أخبار غيرها وهيهات أن تكون فلسطين الصغيرة عضوًا فى جسم مملكة واسعة الحدود ولها نصيب فى صفحات التاريخ لاسيما إذا خلت من الحروب أو الانقلابات السياسية وتجردت من النهضات الأدبية كظهور نوابغ وعظماء فى العلم والشعر والأدب.